الفصل السادس عشر

التجارة والملوك

الحرب هي تجارة الملوك

دريادن ـ الملك آرثر

عندما وصلت انباء النكبة في الأرض المقدسة إلى أوروبا، استقبلت بالفزع، ولبس ملك صقلية المسح علامة على الحزن، ومات البابا أوربان الثالث الذي كان رجلاً مريضاً، واحتشد الناس في كل مكان في الكنائس والكاتدرائيات للصلاة لاستغفار الرب، فلا شك أن شعبه قد أثم في حقه، وبعد هذا سيرونه أسفهم الشديد، وكان رعبهم يطفح بالصدق، ولم يصدقوا مثل تلك الفاجعة المروعة كان يمكن أن تحصل في المجتمع المسيحي كله في الممالك الصليبية، وفي تلك المفاجأة والسرعة، ففي لحظة كان يعود المسافرون بروايات عن قوة وروعة مملكة القدس، وعن الحياة المترفة التي كان ينعم بها مواطنوها، ثم في اللحظة التالية، أخبروهم بسقوط المدينة المقدسة نفسها في أيدي الكفار وبضياع صليب الصلبوت، أنه من المستحيل التصديق بأن الصرح الضخم كله الذي بني بالألم والجهد عبر سنين من قبل الصليبيين تحطم في أيام فاجعة قليلة، وأن خطط قلة من اللاجئين في صور وأماكن أخرى هم الذين تدبروا أمرهم في الإبقاء على حياتهم.

وخلف البابا أوربان، البابا غريغوري الثامن، وهو زاهد طيع، أصدر مباشرة استغاثة للقيام بحملة صليبية جديدة، واعداً جميع أولئك الذين أخذوا الصليب بالصفح عن ذنوبهم، وإنهم ذاهبون إلى الجنة إن قتلوا، وقد مات في

أقل من شهرين، بينما كان يحاول إقامة سلام بين البيازنة والجنويين كي تتحرر المدينتان مما بينهما، وتضمنا إلى الحملة الصليبية، وقد نصب كليمانت الثالث رجل الاصلاح الذي ولد في روما، في مكانه، ولم يكن ثمة أحد بحاجة إلى طبيعة استرضائية أكثر منه، ولم يكن البيازنة والجنويون الشعب الوحيد في أوروا في قتال مع بعضهم البعضى، بل كان الناس في جميع أجزاء أوربة في نزاع مع بعضهم بعضاً وحتى يمكن إقناعهم بإقامة السلام لم تكن ثمة فائدة كبرى في محاولة إقناعهم بالذهاب إلى مساعدة المسيحيين المحاصرين في الممالك الصليبية أو بما ترك منها، وكان ملك صقلية في حرب مع البيزنطين، ولم تكن هذه ذات أهمية كبيرة مقارنة مع مأزق انكلترا وفرنسا، لأن هنري الثاني في انكلترا كان في حرب مستمرة تقريباً مع فيليب أوغسطس في فرنسا، وكرئيس لاسرة بلانتا جينت حكم هنري جزءاً كبيراً من فرنسا أكثر مما حكمه الملك فيليب أوغسطس، ولقد كان دوق مناطق نورماندي وبريتاني وأكويتين، وفي منصب كونت لمناطق أنجو والماين وبواتو والمانش واوفرن، وهذا وحده جعل العلاقة بين الرجلين صعبة جداً، ورغم فترات السلام بينهما، راقب كل منهما الآخر بشك عميق، لأن كلاً منهما عرف أن الآخر سيغزو أرض الآخر في لحظة ما، إذا منح أبسط مسوغ للقيام بذلك. كما لم يكن ليفاجئ أحدهما لو حطم منافسة المعتدي دون أي مسوغ على الإطلاق، وساءت الأمور أكثر بسبب ولدي هنري: ريتشارد وجون اللذين كان ولاؤهما ولنقل أقل قدر ممكن أقل من أن يوصف، فقد كان ريتشارد ميالاً بشكل خاص لتغيير مواقفه مع الأطراف المتحاربة، والقتال بحياد مدهش فأول الأمر مع والده ضد الملك الفرنسي ثم، وعندما كان يناسبه ذلك، مع فيليب أوغسطس ضد والده، وحتى بعد وفاة هنري الثاني سنة 1189 كان ملكا انكلترا وفرنسا على استعاد للانضمام إلى حملة صليبية جديدة.

وسرعان ما استعد الامبراطور الألماني فريدريك بربروسا وكان في أواخر الستين من عمره حيث كان على العرش لفترة تنوف على ثلاثين سنة،

ورغم أنه لم ينعم بحكم مسالم وفي الوقت الذي تم فيه نصر صلاح الدين في الشرق، فقد الكبير هنري الأسد، دوق ساكسوني وبافاريا وهدأ الوضع في مدن لومبارد التي ثارت ضده. ومات البابا ألكسندر الثالث الذي كان في نزاع معه منذ زمن طويل، وقد احترم فريدريك كثيراً لكونه أكبر رجل دولة في أوروبا وكرجل شاب حير معاصريه لأن بدأ أنه متحلٍّ بجميع الفضائل، فقد كان شجاعاً إلى نقطة الجسارة وذكياً وحاسم القرار وممتلكاً طاقة لا تنضب، بينما كان من الناحية الجسمانية ممتليء الجسم وجذاباً وذا بشرة شقراء وشعر أحمر متجعد وذا لحية ووجه مبتسم باستمرار، ورغم أنه كان في السبعين من العمر وقت الحملة الصليبية الثالثة، فإنه لم يفقد شيئاً من جاذبيته وكان لا زال في نشاط العديد من الرجال الذين كانوا في منتصف عمره، وأكثر من أي ملك أوروبي غربي آخر، منذ شالمان، جسد فكرة ومثالية الملكية في العصور الوسطى، وعندما أخذ الصليب في ربيع عام 1188 سرت موجة هائلة من الحماس في أنحاء أوروبا، واندفع رجل انكليزي يدعى وليم من نيوبرغ كثيراً متأثراً بذلك إلى درجة أن أشير إليه «بامبراطورنا».

وقام فريدريك بالاستعدادات للحملة الصليبية بعناية. فكتب رسائل إلى ملك هنغاريا والامبراطور البيزنطي والسلطان السلجوقي الذي عبر أراضيه قصد المسير وتلقى أجوبة مهذبة منهم جميعاً، كما كتب إلى صلاح الدين الذي رد عليه رداً مهذباً بشكل مساو، ولكنه أوضح وضوحاً تاماً أنه لم يكن خائفاً من وصول الامبراطور الألماني. وعندما انطلق في 11 أيار 1189 تحدث معاصروه عن رهبة قوة عدوهم التي فاقت، كما اعتقدوا، المائة أو المائة والخمسين ألف رجل، وعلى الرغم من أنها كانت مبالغات فقد كان جيش الحملة أضخم جيش غادرها مع ذلك الوقت حيث تألف من عشرين ألف فارس، وربما كان رجال المشاة ستة أو سبعة آلاف تابع من المعسكر، ولم يكن جيشاً كبيراً فحسب بل حسن التجهيز والتنظيم، وكان المسير خلال هنغاريا مسالماً وخلواً من الحوادث، وحالما دخل الجيش الأراضي البيزنطية

ظهرت بعض المشكلات، ففي غياب حاكم قوي في القسطنطينية كان قطاع الطرق واللصوص الذين هاجموا الصليبيين يجتاحون ريف الصرب كلما سنحت لهم الفرصة، فأصابوهم ببعض الأضرار، ورغم أنهم قتلوا بعض المتشردين غير أن الألمان لاموا البيزنطيين وسرعان ما ظهرت العداوة تجاههم، وكان الامبراطور اسحق أنجلوس رجلاً ضعيفاً وأحمق، وعندما علم أن الامبراطور الألماني كان يزحف نحو العاصمة على رأس جيش ضخم، قد جعلته الاشاعات أضخم مما كان في الحقيقة، أنهار من الفزع الذي ازداد سوءاً عندما احتل فريدريك مدينة فيليبو بوليس، وعندما أرسل الامبراطور الألماني سفراءه إليه للقيام بالترتيبات اللازمة لعبور الجيش البوسفور إلى آسيا، قبض إسحق عليهم ورماهم في السجن.

وقد كان هذا عملاً يتصف بالغباء والجبن، لأنه أكد لفريدريك بأنه عدوه، وقرر الأخير دعوة أسطول من ألمانيا لشن هجوم موحد من البحر والبر على القسطنطينية، وكذلك التطلع إلى بركات البابا على حملة ضد البيزنطيين، وعندما سمع إسحق بهذه الخطط ازداد خوفه كثيراً، وبعد تردد قليل أطلق سراح السفراء وعقد سلاماً مع فريدريك، وفي ذلك الوقت قدم الخريف، وقرر فريدريك أنه من التهور محاولة المسير عبر الأناضول حتى وقت الربيع، فإن الرياح الثلجية الباردة التي كانت تهب من روسيا في الشتاء عبر سهلها الأجرد، وتلالها القاحلة كانت خطيرة جداً، لذا أقام في فصل الشتاء في أندرنيوبل، وانتظر قدوم الربيع.

وفي آذار 1190 عبر الجيش مضيق الدردينل إلى آسيا من نقطة قرب غاليبولي، وبالتالي تجنب البوسفور حيث ربما تعرض لبعض المشاكل مع سكان القسطنطينية، وسار فريدريك بعد ذلك جنوباً إلى فلادلفيا ومنها إلى لوديسيا قبل التحول إلى داخل البلاد التي يحكمها السلطان السلجوقي الذي وعده ورجاله بالمرور الآمن عبر مقاطعته، وسرعان ما بدأ رجاله بمعاناة الشمقة نفسها في الطعام والماء كما تحملتها جميع الحملات الصليبية السابقة،

ولم تطل الفترة قبل اكتشافهم أن وعد السلطان السلجوقي بعبورهم الحر والمطلق عبر أراضيه، لم يكن له قيمة، ذلك أنه بعد مرورهم بمنطقة معركة ميريوسيف اليوم، حيث كانت لا تزال عظام أولئك الذين ماتوا هناك قبلهم منتشرة ظهر النشابة الأتراك الفرسان وبدأوا يكبدونهم الخسائر في المشاة، وفي الحقيقة لم يكن على السلطان أي لوم رغم أنه من الطبيعي بما فيه الكفاية أن يعتقده الألمان الغاضبون مسؤولاً، لقد كان إبنه قطب الدين الذي صادف أيضاً أنه ابن حمي صلاح الدين، هو الذي رخص بالهجمات، وكلما تعمق المسيحيون ودخلوا في أراضي أبيه كلما انحاز عليهم الأتراك وتحملوا أكثر الكثير، وفي 18 أيار 1190 التقى الجيشان خارج قونية وتلت ذلك معركة ضارية وتعززت القوات النظامية لقطب الدين بقبائل من البدو التركمان الفرسان على خيول آسيوية صغيرة قوية، ولكن قواته المتحدة لم تكن تضاهي الجنود الألمان المنظمين، وكسب فريدريك نصراً باهراً، وعندما أخبر السلطان أسرع للاعتذار عن ابنه وعقد هدنة مع فريدريك، ثم إن بقية رحلة الصليبيين عبر مقاطعته كانت خلوة من الأحداث، وعندما دخلوا الأراضي التي سيطر عليها الأرمن المسيحيون بدا لهم أن مشاكلهم انتهت، ولكنهم لم ينتهوا منها فعلاً.

ومع بداية حزيران بدأ الصليبيون نزولهم الطويل في جبال طوروس على السهل الساحلي في كليكية، وتقدم فريدريك على رأس الجيش مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء والحرس، ووصل إلى ضفاف نهر سالف. Saleph قبل أن يصله الآخرون، ولم يعرف أحد بالتأكيد ما حدث بعد ذلك، ولعل الامبراطور قد سقط عن حصانه في النهر وفقد وعيه، أو لعل التيار قد جرفه بعيداً عندما حاول أن يشرب الماء. وقد منعه وزن درعه من السباحة بأمان، وكل ما عرف عنه بالتأكيد أنه غرق، وكان موته بمثابة ضربة قاتلة لأعصاب تابعيه، وكتب رجل من كولونيا في يأس «في هذه المرحلة وفي هذه الأنباء المحزنة سكت قلمنا، وانتهت قصتنا»، وانتهت أيضاً الحملة العظيمة، فمع موت قائدهم كان الألمان أشبه بالخراف دون راعٍ، وعاد البعض إلى وطنهم في الطريق التي

قدموا منها، وأبحر آخرون إلى فلسطين حيث شكل القليل منهم فيما بعد نواة جماعة الفرسان التيوتونيين، وحاول ابن فريدريك قيادة ما بقي من الجيش إلى سورية، وأصابته الحمى في السهل السبخي الحار في كليكية الشرقية، وتعين تركه وراءهم. وبينما بدأ الجيش يتفسخ إلى رعاع غير منظمين، وحملوا جثة فريدريك المعالج بالخل معهم وهم متشبثون بمآثر الملك الميت الأخلاقية، ولكنها لم تأت إليهم إلا بالحظ القليل، وهاجمهم الأتراك، وضربوهم بوحشية عندما عبروا الجبال إلى سورية، وعندما وصل الباقون إلى أنطاكية في منتصف حزيران، كان من الصعب الاعتقاد أنهم كانوا قسماً من أحسن الجيوش الصليبية التي غادرت أوروبا، وسرعان ما اكتملت حالة تفسخهم الأخلاقي الذي كان متطوراً إلى حد بعيد عما مضى، في بيوت الدعارة في أنطاكية، وأثناء ذلك، ورغم وجود الخل في جثة الامبراطور فقد بدات بالتفسخ والانتان، ودفنت بسرعة في الكاتدرائية، بينما شكر صلاح الدين ربه لموته كتحرير اعجازي من عدو قوي، وحاول المسيحيون في صور إخفاء خيبتهم المرة في إحباط آمالهم.

ومن حسن الحظ بالنسبة للمسيحيين في وقت انهيار الحملة الصليبية العظيمة، ملكي فرنسا وانكلترا كانا في طريقهما نحو الشرق، وكان فيليب أوغسطس في الرابعة والعشرين في ذلك الوقت رجلاً بليداً وخالياً من التأثير يرى بعين واحدة، وغير أنيق شخصياً ولا يحب الحرب وجباناً أكثر منه شجاعاً ويكره التباهي، ولم يكن لديه تذوق للفنون وقد عاش حياة بسيطة غير طموحة، وكرجل سياسي كان أكثر حكمة ودهاء من منافسه الانكليزي، أما ريتشارد الذي كان في الثانية والثلاثين فقد كان على النقيض منه، وأكثر أفراد عائلته الموهوبة موهبة، واجتمع له الوراثة والحظ ليمنحاه تكويناً جليلاً مع مجموعة من القدرات، وبتشبيه لإله اغريقي كان طويلاً وقوياً جداً ذا شعر أشقر، ووسيماً جداً إلى درجة أنه فتن أصدقاءه وأعداءه، وفي نفس الوقت أسر الجميع بسحر أسلوبه وشجاعته، كما كان قائداً جيداً ذا طاقة غير محدودة

ومحباً للفخامة والأبهة في المنصب الملوكي، ونصيراً متحمساً للشعر والموسيقى، كما كان رجلاً ذا تقلب نفسي معين وميالاً للتنقل من تطرف عاطفي، إلى آخر أكثر تطرفاً، وأوحى بعض الناس بأنه ربما كان لوطياً رغم أنه أقرب وأبرز مؤرخ معاصر له في تلك الفترة قد تقدم للاقتراح بمثل هذا الشيء، وتعين عليه أن يقول أن أذواق، ريتشارد لم تتجه إلى الزواج». التي لم تتضمن بالضرورة الشيء نفسه، وبالطبع تزوج ببرنغاريا Berengaria، أما أخطر أخطائه فكان مزاجه الذي دفعه إلى القيام أحياناً بأعمال عنيفة ووحشية بصلابة مناقضة لسماحة نفسه وكياسته الطبيعيتين، وعلى الرغم من أخطائه خلال حياته وبعدها أيضاً، فقد كان بطلاً مفضلاً بين الشعراء والشعراء الغنائيين، وقد اعتبره رجال من مختلف الجنسيات ـ انكليزيين وفرنسيين والمان وأتراك وعرب ـ الرجل الأقرب لتجسيد المثالية الرومانسية لفروسية العصور الوسطى، بينما حسد صلاح الدين أنبل وأكرم صورة في القصيدة الاسلامية. وهناك بعض الحقيقة في تلك النظرة العامة للرجلين.

وبعد أن تم عقد سلام بعد موت هنري الثاني وافق فيليب صاحب فرنسا وريتشارد صاحب انكلترا على الذهاب في حملة صليبية مشتركة معاً، وقد قاما بذلك علناً لأنه لم يكن أحدهما يثق بالآخر في الحفاظ على السلام أو في الإحجام عن غزو مملكة منافسه إذا ذهب أحدهما نحو الشرق بينما بقي الآخر في وطنه، ولذلك انطلقا معاً من فيزيلي في الرابع من تموز 1190 للمسير إلى ليون حيث افترقت سبيلهما، وأخذ فيليب الطريق المؤدية إلى جنوة حيث كان الايطاليون قد رحبوا بنقله وجيشه بطريق السفن إلى الأرض المقدسة، وبينما سار ريتشارد جنوباً إلى مارسيليا حيث تعين على الأسطول الانكليزي الذي كان لديه أوامر بملاقاته، وكان الملك وليم في صقلية الذي تزوج أخت ريتشارد جوانا قد دعا الطرفين معاً لجمع قواتهما في الجزيرة، ورغم حقيقة أن وليم قد مات حديثاً، فقد قرر فيليب وريتشارد الاجتماع في ميسينا كما خططا لذلك في الأصل، وفي أثناء ذلك، خلف وليم ابن عمه تانكرد الذي كان حقيراً

ومكروها وسرعان ما اكتشف أن ميراثه لم يكن وظيفة عاطلة، وجاءت وزائته بسبب أن وليم لم يكن لديه أطفال من زوجته جوانا.

ووصل فيليب أولاً إلى الجزيرة وحط رحاله في مدينة ميسينا في أوائل شهر أيلول وجعل طريقه بأبهة إلى القصر الذي وضعه تانكرد تحت تصرفه، ووصل ريتشارد بعد ذلك بعد أيام في مزاج سيء كلية بعد رحلة مرهقة قادماً إلى الشاطئ في ميسينا في شكل مغاير لفيليب، وفي أسلوب ملتو، وأخذ طريقه إلى قصر آخر خارج أسوار المدينة انضمت إليه أخته جوانا التي كان مكرساً نفسه لها، ولكن وصولها عمل على زيادة مزاجه السيء فقط بسبب القصة المزعجة التي أخبرته بها، فقد قالت له أنها بعد وفاة زوجها عاملها تانكرد معاملة سيئة بشكل مقيت، وأغلق عليها غرفتها كالسجينة وجردها تانكرد من مهرها بدلاً من رده لها، واستولى على عدد من الأشياء التي كان الملك الأخير وليم تركها لحميه (والد زوجته) هنري الثاني ملك انكلترا، والتي اعتبرها ريتشارد بالطبع من خصوصياته بعد موت والده.

وفي حين كان ريتشارد يعمل بنفسه على إثارة المشاعر والحنق ضد ذنوب تانكرد العديدة في ارتكاب الجرائم واللامبالاة، كان الجنود الانكليز يتصرفون بشكل سيء تماماً في المجينة من مضايقة للنساء، وقتل كل من تجرأ على اعتراضهم، وأصبح الوضع متفجراً، وفي الأول من تشرين الأول وبينما كان ريتشارد منا يزال في مزاجه الغاضب القاتم، ويطيل التفكير في الاهانات التي وجهت إلى أخته، ظهر عصيان مناهض للانكليز، وسمعت خلاله مجموعة من الصقليين الغاضبين تقوم بترويج بعض ملاحظات تحامل وازدراء عن ريتشارد نفسه، الذي أخبر بها فزادت من تعكر مزاجه، ونفذ صبره فأمر قواته بالهجوم على المدينة التي استولى عليها في كلمات الشاعر الانكلونورماندي امبروا «في وقت أقل من أن يستغرقه قس في غناء مزمور» لقد كانت جزءاً من قرصنة مطلقة أزعجت الملك فيليب وروعت تانكرد الذي وافق في الحال على تسليم مهرجوانا ومبلغ كبير من الذهب عوضاً عن الميراث الذي

خص هنري الثاني، وعرض في نفس الوقت توقيع معاهدة مع الملك الانكليزي ريتشارد الذي كان يحب الذهب، لذا وافق على توقيع المعاهدة في حينها.

وبعودة السلام وتحسن مزاج ريتشارد قرر الملكان قضاء الشتاء في صقلية، ولم يبحرا إلى الممالك الصليبية حتى ربيع 1191 حيث غادر فيليب في نهاية آذار، وبعد عشرة أيام تبعه ريتشارد، وكانت رحلة الملك فيليب هادئة وخلوة من الحوادث، ووصل إلى صور في منتصف نيسان حيث ابتهج الجميع بوصوله الذي غرس فيهم الشجاعة من جديد، فقد تعين عليهم الانتظار فترة طويلة لوصول النجدة في الوقت الذي كان الاخفاق الألماني العام بعد موت فريدريك بربروسا خيبة مروعة، وأخيراً وصلت النجدة التي صلوا من أجلها، وبدأ الناس يعتقدون أن الحظ ربما قرر أخيراً أن يبتسم لهم مرة أخرى بعد أن علموا أن ريشارد كان في الطريق إليهم.

أما رحلة ريتشارد فكانت بعيدة عن كونها هادئة، ودامت فترة أطول من غيرها، وبعد أن أبحرت إلى ما وراء جنوب اليونان غيرت عواصف عنيفة الحياة وجعلتها غير مريحة مطلقاً لعدة أيام، وكان ريتشارد بحاراً ضعيفاً رقيق الصحة في البحر إلى حد مروع، وغرقت احدى سفنه بينما ضلت الأخرى وخرجت عن طريقها إلى قبرص، وكان على ظهر احداها أخت ريتشارد، جوانا وابنه ملك نافار، الأميرة برنغاريا التي عزم الزواج منها، وكان يحكم قبرص آنذاك مطالب بالعرش البيزنطي، اسحق كومينوس الذي كان في عصيان ضد الامبراطور غير الشرعي اسحق أنجلوس الذي تدبر أمر ترسيخ نفسه إلى حد ما في الجزيرة رغم عدة محاولات خائبة من قبل الحكومة في القسطنطينية لاخضاعه، وانزعج تماماً عندما وصلت أنباء عن اقتراب عدد من السفن، وعندما نزل إلى بر الجزيرة بعض رجال ريتشارد رماهم في السجن، ولم يرس في الجزيرة المركب الذي يحمل الأميرة برنغاريا والملكة جوانا بل جرى إلى مرفأ في خليج لماسول حيث أرسل قائد المركب إلى الشاطئ يسأل ماء ومؤناً،

ورفض اسحق كومينوس على نحو قاطع أعطاءهم أية مساعدة على الاطلاق، ومنع الجميع في السفينة من النزول إلى البر.

وعندما وصل ريتشارد بعد عدة أيام كان يتميز غيظاً، أما ميله الطبيعي إلى العنف لم يكن ليستقر أبداً وقد انفجر مثل بركان هائل من الغضب العدواني ونزل رجاله إلى الشاطئ وهاجموا ليماسول التي استسلمت على الفور. وفر اسحق إلى مكان آمن ومن هناك عرض أن يتفق مع ريتشارد، والتقى الرجلان كما ينبغي ووافق اسحق على كل شيء طالب به ريتشارد، ولكنه عاد وتنكر لاتفاقه حالما غادر المعسكر الانكليزي، ولم يستطع أن يرحل بسهولة عندما تعززت يد ريتشارد كثيراً بوصول زمرة من الفرسان من الممالك الصليبية، الذين قدموا ليعرضوا ترحيبهم مع الأسطول الانكليزي، ولكونه متأكداً من تفوقه بعد هذا، لم يسارع لتأديب اسحق، وقبل ذلك تزوج برنغاريا في جو فيه أبهة كبيرة بقدر ما سمحت الظروف وتوجت ملكة، ثم شرع في فتح الجزيرة وأبدى اسحق بعض المقاومة التي لم تأت بالفائدة الكثيرة، ومع نهاية أيار أصبح سجيناً لدى الملك الانكليزي، ويبدو أنه لم يخطر في بال ريتشارد أن قبرص جزء متمم للامبراطورية البيزنطية، أو أن سكانها مسيحيون، وبعد انتزاعه غنائم كثيرة منهم عين رجلين انكليزيين كحاكمين في الجزيرة، حتى يقرر كيف يتصرف بها، فهي بالنسبة له بلاد مفتوحة ليس أكثر.

وبعد مضي سبعة أسابيع على قدوم فيليب أوغسطس من فرنسا، وفي بداية حزيران، وصل ريتشارد إلى خارج ساحل الممالك الصليبية ليجد أن الجيوش المجتمعة تحاصر عكا، وكان ذلك بعد أربعة سنوات تقريباً من معركة حطين، وقد نجح المتبقون من تلك النكبة في التشبث في صور حتى قدوم النجدة الجديدة، وقد قادهم بشكل رائع ابن عم الملك الفرنسي، كونراد أوف مونتفرات الذي كان وصوله إلى المدينة في الوقت الذي كان في الانتصار العظيم لصلاح الدين، وصل بتدخل من العناية الالهية، وكان ذلك رجلاً قادراً بشكل كبير، ثم كان عديم الرحمة وقوي التصميم، وعندما استعرض صلاح

الدين الذي كان قد أسر أباه في حطين الشيخ الكبير عند أسوار عكا، مهدداً بقتله أن لم يسلم كونراد المدينة، أجاب أن والده عاش كثيراً بما فيه الكفاية، وأن الأجدر به أن يموت بأية حال، وانضم إلى كونراد عدد كبير من القادمين الجدد من الغرب الذين لم ينتظروا الملوك ليوقفوا الصراع بينهم قبل الشروع في مساعدة إخوانهم المسيحيين المضطهدين، وقبل موته أرسل الملك وليم صاحب صقلية مساعدة إلى الرجال المحاصرين من قبل صلاح الدين في صور، وأبحر فيما بعد بعض الرجال الهولنديين وبعض الايطاليين وبعض الفلاندريين إلى اليمناء هناك ليقدموا خدماتهم كجنود للصليب، وتلاهم فرقة انكليزية سنة 1189، ومع مرور السنين أطلق صلاح الدين سراح أكثر الأسرى شهرة في مقال دفعات مختلفة الأنواع من الفدية، وعزز هؤلاء أيضاً البقية المقاتلة والصغيرة من الجيش المسيحي الذي لم يدمر على تلة قرني حطين.

وفي أثناء ذلك وفي صيف سنة 1188 أطلق صلاح الدين سراح الملك غاي، وبعض النبلاء في مملكته على شرط أن يغادر البلاد، ووعد غاي كما ينبغي بالرحيل إلى فرنسا وحالما حصل على حريته سأل الكنيسة أن تحله من قسمه، ونظراً إلى أنه صار الأمر إلى المسلمين وليس إلى المسيحيين قامت الكنيسة بذلك مضطرة وغير مترددة، وعندما تقدم غاي إلى احدى بوابات صور، ورفض كونراد أوف مونتفرات الذي أنقذ المدينة، ودعي منذ ذلك الوقت بقائدها دخوله، بل ذهب إلى أبعد من ذلك في الواقع، حيث رفض أن يعترف به ملكاً، فكانت النتيجة، أن عداوة مباشرة ودائمة برزت بين الرجلين. ومنذ ذلك الوقت انقسم المجتمع المسيحي المتبقي إلى حزبين متعاديين بعنف ومكرسين أنفسهما لتدمير بعضهما البعض أكثر من قتال عدوهما المشترك صلاح الدين، وكان ذلك تطوراً مفجعاً وحتى غاي الذي لم يكن أكثر تفكيراً أو أحكم فكرة بين الرجلين، أدرك بعد فترة من الوقت أن بقاءه عند أسوار صور دون مساعدة، وفي حالة غضب مثبط لم يكن يخدم القضية المسيحية، وحرك مؤيديه وقام بزحف مفاجئ وصاعق على عكا التي حاول الاستيلاء

عليها بعملية انقضاض، وأخفق ولم يثنه ذلك عن عزمه وعسكر عند أسوار المدينة وشرع بفرض حصار حولها، وأخفق صلاح الدين في طرده من المكان، وعليه وبدلاً من ذلك، حاصر الجيش الأسلامي الإفرنج المحاصرين، ومع مرو الوقت انضمت إلى غاي بعض الامدادات الجديدة حتى أن كونراد أوف مونتفرات قدم إلى نجدته في الهجوم على المدينة، وعزز وصول الملك فيليب أوغسطس ملك فرسا الجيش المسيحي كثيراً هناك، وتم الترحيب بوصول ريتشارد عن طريق البحر ومعه خمسة وعشرون سفينة بالابتهاج والفرح من قبل الصليبيين وبالانذار من قبل المسلمين الذين رأوا وصول المراكب محملة بالرجال بينما كان الجميع عند الشاطئ ينفخون الأبواق والمزامير ويقرعون الطبول ويوقدون النار في المشاعل للترحاب بهم.

وكان لدى فيليب أوغسطس عدد من أسلحة الحصار الكثيرة والفعالة جداً، وقد أطلق الجنود لقبين على اثنين منهما. مقلاع الرب، والجار الشرير، ولكن فيليب لم يكن بالشخص العدائي، ولم يفد وجوده كثيراً في إثارة جنوده، ولم يكن ريتشارد هناك لفترة يوم قبل أن يغرس في الجميع الشجاعة من جديد بوجوده المحض بينهم، ولسوء الحظ، سقط ريتشارد وفيليب صريعي المرض بعد وصول الأول التي التزم الراحة في سريره لفترة من الوقت، وامتلأ فمه وحنجرته بالقرح والألم، ولكنه استمر في ادارة العمليات من خيمته، وتولى قيادة الجيش المسيحي في الزحف على عكا، ولم يتساءل الجميع عن حقه في القيام بذلك، وخلال مرضه تبين بوضوح أنه من الحكمة قبول قيادته، لأنه طارد أعداءه بنشاط أكثر في سرير مرضه مما فعل فيليب اوغسطس عندما كان في كامل صحته، وكانت آلات الحصار تضرب حجارتها وتدك ليلاً ونهاراً وتقذف صخوراً كبيرة على الأسوار وإلى داخل المدينة. فكان يتلو وقع خبطها تحطيم وسقوط المباني واثارة غيوم من الغبار، كانت تتضخم ببطء في الهواء مثل تفتح أزهار صفراء كبيرة، وبذل رجال صلاح إلدين ما كان في وسعهم للتدخل في ذلك القصف. وقد دون الشاعر امبروا ملاحظة عن بعض

المجابهات التي نتجت عن ذلك، فقد كانت حرباً شخصية جداً، وكتب يصف احدى الحوادث الصغيرة الحية قائلاً: «صدف وجود فارس في أسفل حفرة خارج المعسكر لشأن خاص لا يمكن أن يقوم به عند أحد من البشر، وعندما وضع نفسه هكذا، افترق عن زملائه أحد الأتراك في أحد مواضع العدو الخارجية التي لم يلق إليها هذا انتباهاً، ودفع التركي حصانه للتقدم إلى الأمام، وكان شيئاً خسيساً وحقيراً أن يسعى لمفاجأة الفارس بينما هو يحتل المكان هكذا، وكان التركي قد ابتعد لتوه عن أفراد مجموعته متقدماً إلى الفارس وفي يده مدية لذبحه وعندما صرخ رجالنا «اركض سيدي اركض!» ولم يكن لديه وقت للنهوض، حيث تقدم التركي بعدوة سريعة كاملة معتقداً أنه سيكون قادراً على ادارة حصانه والعودة به إلى الوراء إذا احتاج إلى ذلك، ولكنه لم ينجح والحمد لله. فقد رماه الفارس إلى أحد الجانبين ورفع حجرين في يديه وأصغى إلى كيف يكون انتقام الرب، وعندما تفحص التركي حصانه ليعود به، ورآه الفارس بوضوح بينما كان ينسحب قريباً إليه الطمه بأحد الحجرين على صدغه فسقط التركي صريعاً، وأخذ الفارس حصانه وقاده من لجامه».

وبينما كانت مثل تلك الحوادث تجري يومياً. سادت في مناسبات أخرى روح قتالية مختلفة، وروى مؤرخ أحداث مسلم هو بهاء الدين، كيف اعتاد الجانبان على رؤية بعضهما البعض وفي بعض الأحيان توقف الجنود المسلمون والجنود الإفرنج عن القتال للتحدث إلى بعضهم بعضاً، حيث يختلط الحشدان يغنون ويرقصون مع بعضهم بعضاً ليعودوا بعد ذلك إلى القتال، وقالوا مرة لقد كنا نتقاتل لفترة طويلة دعونا نتوقف لفترة ونفسح المجال لأولاد المعسكرين يرونا ماذا يستطيعون أن يعملوا، وهكذا نافسوا زمرتين من الغلمان الذين تصارعوا مع بعضهم بحماسة شديدة، وقد رفع أحد الشباب المسلمين شاباً كافراً فوق الأرض ثم رماه إلى الأسفل حيث جعله أسيره. وتقدم أحد الإفرنج المشاهدين وافتدى الأسير لقاء قطعتين من الذهب، وقال الإفرنجي للشاب

المنتصر «إنه اسيرك»، ولكن بعد تلك الفترات الفاصلة كان يعاد القصف، وحيثما يحصل خرق في السور مهما كان صغيراً تحاول كوكبة من الصليبيين الدخول واقتحام المدينة، ولكن الاشارات من المهاجمين كانت دوماً تأتي بالثأر المباشر من عند صلاح الدين كان يشن هجوماً مضللاً على مؤخرة المسيحيين، وبذلك يتم التخلي عن محاولاتهم عند الأسوار، ومع نهاية حزيران وبينما كان ريتشارد لا يزال مريضاً جداً عاجزاً عن الاشتراك في الهجوم، قام الفرنسيون بانقضاض مماثل مركزين على ثغرة كبيرة أحدثتها المناجيق، ولكن المدافعين قاتلوا مثل المردة وأعطت اشارة إلى صلاح الدين الذي هاجم المعسكر المسيحي، وعند المساء اضطر الفرنسيون إلى التراجع حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم، وفي ذلك الوقت بدأ يتملك الجانبين يأس مر، فقد قاتلوا دون عطاء أو توقع شكر. وأحرق بعض القادمين الذين وصلوا مع روبرت، ايريل منطقة ليستر واندر وأوف شافعني سجيناً حيا على مشهد قرب الأسوار، واتخذت الحامية على الفور ثأرها باحراق أسير صليبي على خازوق.

وازدادت سوءاً ورطة الستة آلاف مسلم المحبوسين في عكا في كل يوم. فمع قدوم الأسطول الانكليزي حوصروا تماماً من جهة البحر، وزادت الحاجة إلى الطعام إلى درجة أن الحمام الزاجل قد استعمل، وأرسلت رسائل إلى صلاح الدين مع نهاية شهر حزيران. ولم تكن شجاعتهم قد انهارت، ولكنه أصبح من الواضح أن الشجاعة وحدها لن تنقذهم، فنشأت الخلافات بينهم، كما بدأ الكلام في داخل المدينة عن تسليمها رغم أنه لم يكن ذلك شيئاً في عامل الزمن، فقد أساء إلى معنويات المدافعين، وخلال ذلك السباق، حدث هجوم آخر أيضاً على المدينة في الثاني من تموز. ورد صلاح الدين بهجوم معاكس بكل رجل استطاع جمعه، كما حاول ابن أخيه تقي الدين محاول ضارية لخرق الصفوف المسيحية، ولكنه أخفق، وبعد عدة أيام قام الجيش الانكليزي وهو متعطش لصنع المجد وجائع لنيل الغنائم بمحاولة للاستيلاء

على الموقع، بينما احتل الفرنسيون مكاناً آخر. وأخفقوا أيضاً، وقد اقتربوا كثيراً إلى النجاح حينما قرر المدافعون كفايتهم من القتال، وتطوع رجل للسباحة خارج الميناء مع طول الساحل حتى أصبح بمعزل عن خطوط المسيحيين، ومن هناك لينقل رسالة إلى صلاح الدين، ويخبره أنهم لم يعد بامكانهم الصمود أكثر من ذلك، وفي 12 تموز تقدموا بعرض للاستسلام بناء على الشروط التالية: الابقاء على أرواحهم، وبالمقابل يسلمون المدينة سليمة إلى الصليبيين، ودفع مبلغ من المال من الذهب واطلاق سراح 1,500 أسير بما فيهم عدد من النبلاء، واعادة صليب الصلبوت الذي استولى عليه فوق تلة حطين، وعندما توفى جميع هذه الشروط يطلق سراحهم. ووافق ريتشارد وانتهى الحصار.

وجزع صلاح الدين لذلك، وعندما وصل إليه السباح قرأ رسالته وأخره بالعودة إلى المدينة وإخبار المدافعين أنه لم يوافق على تلك الشروط التي عرضوها، ولكن بينما هو يتكلم صعق بمنظر المشاعل فوق سور المدينة وبرفع رايات وصلبان الإفرنج فوق أبراجها ومتاريسها، فقد سقطت عكا، وأن أية مساعدة أخرى من صلاح الدين ستأتي متأخرة جداً، ولكونه الرجل الذي كان يقدر المسؤولية قرر أن يوافق على الاتفاق الذي صنعه ضباطه رغم أنه لم يرق له، وفي تلك المرة نفذ المسيحيون جانبهم من الاتفاقية أيضاً، وسمح للمسلمين بمغادرة المدينة دون ازعاج، وفي الحقيقة شاهدهم المنتصرون يخرجون بشيء من العطف بينما خرجوا. من المكان إلى الأسر، لأن شجاعتهم كانت باسلة جداً إلى درجة أنهم فازوا بالاحترام وبشيء شبيه بالتعاطف من قبل أعدائهم، وقد كانوا هزيلين مغبري الشعر يتضورون جوعاً ومتسخين، وألبستهم رثة، ولكنهم غير مطاطئي الرؤوس، الشيء الذي أعجب الصليبيين.

وكالسابق، حالما فاز الصليبيون في المعركة، بدأت المشاجرات بين بعضهم بعضا، فقد كان نزاعهم حول الأسبقية وحول من ينبغ أن يعيش هناك،

كما بدأوا يناصرون بعضهم ضد البعض الآخر، فأيد ريتشاد إلملك غاي، وساند فيليب كونراد أوف مونتفرات، وكألماني أكبر رغب دوق النمسا أن يتعامل بالتساوي مع الملكين الفرنسي والانكليزي، ورفع الراية أقرب إلى جانب ريتشارد، وعندئذ سحبها بعض الجنود الانكليز مباشرة ورموها بشكل حقير في الخندق عند السور، واعتبرها الألماني إهانة لم يغفرها ولم ينسها، وقام التجار الذين كان لديهم ممتلكات في عكا قبل سقوط المدينة في أيدي المسلمين بكل شيء ممكن لاعادة ملكيتهم في عكا مرة ثانية على حساب القادمين، الجدد الذين قاتلوا معهم كتفاً إلى كتف خلال زمن الحصار، وخفت حدة الأمور عندما حلت مسألة الملكية في القدس، وذلك بتأييد غاي في المنصب طيلة حياته، ووعد كونراد أوف مونتفرات بالملك بعد موت غاي، وتحرروا من القلق أيضاً عندما قرر دوق النمسا وهو لا يزال يقطب غضباً ويداوي كبرياءه المجروح، العودة إلى الوطن الأم، وتبعه في ذلك الملك الفرنسي فيليب الذي لم يكن يحب الحرب، أو ريتشارد أو الأرض المقدسة حيث مرض تقريباً باستمرار منذ وصوله، فهو قد قام بواجبه كمسيحي وكان ذلك كافياً، ولكن ريتشارد الذي كان خائفاً مما يمكن أني قوم به فيليب في الأراضي الانكليزية عندما يصل إلى وطنه فرنسا، حاول أن يقنعه بالبقاء، ولكنه كان عنيداً وفي 31 تموز أبحر خارجاً من عكا في أول مرحلة من رحلته عائداً إلى برنديزي.

وبعد رحيل فيليب أصبح ريتشارد دون منافس. وكانت مهمته الأولى التأكد من وجوب حفاظ صلاح الدين على الوعود التي صنعها باسمه آمر الحامية في عكا. وهو الشيء الذي كان السلطان على استعداد لعمله، فإنه لم يكن بالرجل الذي ينقض كلمته، وأرسل ريتشارد سفراءه إلى معسكره حيث استقبلهم صلاح الدين بلطافة. وأطلق سراح بعض الأسرى الإفرنج ودفع القسط من الذهب الموعود به كذلك، وأبرز صليب الصلبوت للسفراء كعلامة على الجوانب النهائي بعد أن نفذت جميع الشروط الأخرى من التسليم، ولكن

ريتشارد اشتكى أن الأسرى المطلقين السراح لم يتضمنوا النبلاء الذين وعد بإطلاق سراحهم الحاكم المسلم في عكا، وطالب بإطلاق سراحهم في الحال مبدياً رفضه لاطلاق سراح الأسرى لمسلمين بالمقابل حتى يقوم بذلك، ورفض صلاح الدين القيام بذلك فقد كان لا يثق به، وأمر ريتشارد بكل برودة اعصاب بإعدام الأسرى المسلمين بعد اعتباره ذلك التصرف من جانب صلاح الدين خرقاً لشروط التسليم، وسيق خارجاً إلى السهل ألفان وخمسمائة رجل مع زوجاتهم وأطفالهم إلى داخل حظيرة من الأغطية المعلقة فوق حبال، وذبحوا على مشهد كامل من اخوانهم سكان الريف في المخافر الأمامية لصلاح الدين، وشنق بعضهم وقتل بالسيف آخرون، بينما هاجم الفرسان المسلمون في جنون غاضب محاولين الاختراق إلى مسرح أحداث الإعدام، ولكنهم أخفقوا وتمت المذبحة وغادر الجنود الانكليز تاركين وراءهم جثث القتلى فوق الأرض الملطخة بالدماء ليقبرها المسلمون، والتفت الشاعر امبروا بأفكاره إلى الماضي، وحمد الرب على تلك المذبحة.

وبعد أن تخلص بنفسه من أسراه المسلمين في نهاية شهر آب قاد ريتشارد رجاله خارجاً ضد صلاح الدين، وسار نحو الجنوب، بينما كان الأسطول الانكليزي يحمي جناحه الأيمن، وعلى الطرف الأيسر كان العدو يضايقه قدر استطاعته، وكان الجو حاراً بحيث سقط بعض الجنود الانكليز أو فقدوا وعيهم من تأثير الحرارة بحيث قتلوا مباشرة من قبل الفرسان المسلمين، وبين الحين والآخر كان بعضهم يصرخ في صلاة مسموعة «أنجنا أيها الضريح المقدس!» بينما يؤيدهم آخرون لترتفع الصلاة في تفجر صوت يتردد متموجاً مع طول الرتل الزاحف، ومروا بحيفا وجبل الكرمل واجتازوا مجهدين خلال حرارة الصيف إلى قيسارية. تارة معسكرين منذ وقت مبكر من النهار وأحياناً آخر مستريحين طوال اليوم كله، واستغرق وصولهم إلى أرسوف فترة أسبوعين رغم أن المسافة لم تتجاوز ستين ميلاً من نقطة البداية عند عكا. حيث وجدوا جيش صلاح الدين ساداً طريقهم. وانسحب المسلمون عبر السهل الساحلي وكان

لديهم فرسان أكثر من المسيحيين ولكنهم خفيفو التسليح ومعتلون خيولاً عربية صغيرة سريعة، بينما كان الفرسان المسيحيون رغم قلتهم مسلحين بكثرة وراكبين لخيول تشبه أطرافها الثخينة جذوع الأشجار: وهي أسلاف الخيول الانكليزية الضخمة في انكلترا وخيول بيرشيون في فرنسا، ورتب ريتشارد رجاله في تشكيل محكم ملتزمين إلى بعضهم بعضاً، ومزودين بالحراب والرماح مثل قنفذ فولاذي هائل، وكان معزم الفرسان في الوسط والنشابون في المقدمة بينما كان فرسان الاسبتارية في أقصى الجناح الأيسر وفرسان الداوية في الطرف الأيمن قرب البحر، وكان فيليب أوغسطس قد ترك القسم الأكبر من الجيش الفرنسي من الصليبيين خلفه عندما أبحر إلى فرنسا، فبقوا مع ريتشارد تحت أمرة هيغ أوف برغندي كما كان فيهم غاي ملك القدس أيضاً، ولذلك كان هناك خليط بعضه من نورمانديين وبعضه من بريتونيين ومن فلاندرز، وعندما وجد الجميع في المكان تقدم ريتشارد ودوق برغندي على طول الصفوف ليثبت عزيمة رجاله وليشجعهم على الثبات فليس لأحد أن يخرج عن الرتل أو يخرق الوصية حتى أعطاء الأوامر.

وانتظر الجيش المسيحي مجفلاً دون حراك ليهاجم العدو عندما ارتفعت الشمس عالياً في السماء الذهبية وتحول ندى الصباح إلى بخار من حرارتها، وكان رجال الجيش صامتين لادراكهم كنه المعركة التي هم جميعاً على وشك الانخراط فيها. وكانت الضوضاء الوحيدة المسموعة هي نباح الكلاب من مسافة بعيدة، وصهيل متقطع لحصان متململ، وبعد ذلك في الساعة التاسعة وبشكل مفاجئ تماماً تمزق سكون الصباح بهتاف وصراخ مشاة المسلمين، عندما اندفعوا إلى الأمام ليصبوا وابلاً من السهام وليطلقوا رماحهم على المسيحيين المنتظرين، وكان القتال ضارياً، ودخل الرجال المشاة الذين تحملوا أوجاعها في فوضى لفترة من الوقت. غير أن الفرسان خلفهم لم يبدأوا أية حركة بعد، في حين كانت ترتد سهام ورماح العدو عن دروعهم بصوت يشبه مطارق فولاذية تضرب على السندان كما وصفها لسان مؤرخ أحداث كان

حاضراً آنذاك، وتوزعت الهجمات على شكل موجات، ولكن بعد فترة انتشر رجال المشاة المصريون والبدو فجأة ليفسحوا المجال للفرسان الأتراك ليحموا على عدوهم، وكانت سيوفهم وفؤوسهم تومض في أشعة الشمس عندما كان يعدون ويندفعون ضد حشد المسيحيين، وتمت ممارسة ضغط شديد على جماعة فرسان الاسبتارية الذين تحموا العبء الرئيسي من الهجوم، في حين لم ينحرف الصف المسيحي في الطرف الأيسر، وبعد كل هجمة من جانب الأتراك كان النشابون الانكليز يعيدون تشكيلهم، ويكبدون فرسان الأعداء ضريبة باهظة لقاءها أما الأسهم المنطلقة من أقواسهم فكانت تخترق دروع المسلمين الخفيفة كما لو كانت قشرة بيض، وكانت سرعة تقدمهم هائلة، وعندما أصبح النهار أكثر حراً بدأ التعب والارهاق يظهر على الفرسان الأتراك، ومع ذلك لم يعط ريتشارد أوامره بالهجوم، وشيئاً فشيئاً بدأ قواده الثانويون يرجونه أن يقوم بذلك، كما ناشده مقدم الداوية مرة بعد مرة أن يصدر أمره، ولكن ريتشارد أخبرهم أن ينتظروا. غير أن هناك حداً للصبر الانساني وكبحه، وتولى اثنان من فرسان الداوية اللذين وصلا إلى ذلك الحد، الأمر بأيديهما دون انتظار أمر من ريتشارد، وهاجما العدو في لحظة، وعلى الفور لحق جميع الفرسان خلفهما، متصورين أن الأمر بالهجوم قد أعطي لهم، ثم انطلق بقية الفرسان الآخرين إلى ساحة القتال للتقدم إلى الأمام والهجوم مخلفين وراءهم سحابة غبار كبيرة، ولما أرى ريتشارد عدم قدرته على ايقاف رجاله لكز حصانه متقدماً في عدو للانضمام إليهم متولياً قيادة مركز الهجوم. إن الحملة الشديدة وزخم ألف أو ما يزيد من الفرسان المدرعين بالفولاذ، ومع كل منهم رمح في حجم سارية الهاتف، وقد اعتلى كل منهم أيضاً حصاناً مرتدياً فولاذاً يزن طناً، هي أشياء صعبة الاستعادة في الخيال، وبرهنت في الوقت نفسه أنها شيء كثير بالنسبة للمسلمين المرهقين المرتعدين، ففر البعض أمام الاندفاع الفولاذي الذي يمكن أن يحطم عظامهم في حين أن أولئك الذين استبسلوا وصمدوا، سحقوا وتحطموا، وفي لحظات كان الجيش الاسلامي

مولياً الأدبار، وأصبحت ساحة القتال لصالح ريتشارد، وهكذا مضى اليوم.

كان ذلك نصراً مناسباً بالنسبة للمسيحيين ولكنه ليس حاسماً. لأن صلاح الدين استجمع رجاله من جديد وتبين أن خسائره كانت أقل مما كان يخشى، كما كانت خسائر المسيحيين قليلة ايضاً ولم يتغير ميزان القوة العسكرية بين الجانبين كثيراً في المعركة، ولكن وقعها المعنوي كان هائلاً لأنها المرة الأولى التي التقى فيها الجيش المسيحي مع صلاح الدين منذ معركة قرني حطين، واندثرت أسطورة عدم قهره هذه المرة وإلى الأبد، في حين أن سمعة ريتشارد لم تقف عالية فحسب بل اتخذت لها مكاناً في الكلام الشعبي الاسلامي أيضاً، مثل الملك الجبار العظيم، وتعززت معنويات المسيحيين بشكل لا يقاس في حين دفعت قوات صلاح الدين الثمن باهظاً، وقلت ثقتها بسلطانها.

وبعد القتال سار ريتشارد نحو الجنوب من أرسوف إلى يافا حيث أعاد تحصيناتها، وتأكد من قوة قاعدته على الساحل حيث سيكون أسطوله في أمان، وقاد صلاح الدين الذي توقع أن يقوم ريتشارد بهجمة على القدس، قاد رجاله إلى الرملة على الطريق إلى العاصمة، وانتظر هناك لقتاله، بنما أمر مهندسيه بتقوية دفاعات المدينة قبل وصول ريتشارد، وعندما سمع أن المسيحيين استولوا على يافا دفع بعض قواته إلى عسقلان مصمماً على عدم سقوطها أيضاً في أيدي الإفرنج مرة أخرى، ودك المدينة حجراً حجراً رغم الالتماسات الموجعة من سكانها، ونقل عن صلاح الدين أنه قال: «أشهد الله أني لأفضل أن أفقد ابنائي جميعاً عن إلقاء حجر من أسوارها، ولكنه أمر ضروري» ولذا استعجل العمل على تدمير احدى أكثر مدن البلاد ازدهاراً، لأنه خشي أن يزحف ريتشارد نحو الجنوب ويهاجمه قبل أن يتمكن من إتمام دمارها.

ولكن كان لدى ريتشارد مشاكله الخاصة، فرجاله متعبون، وسيتعرض للاتهام في سلطته ونفوذه في القيادة لاقناعهم باتباعه لو أنه حاول حملهم على

النزول إلى القتال مرة ثانية مباشرة بعد إجهادهم وبذلهم الأخيرين، فقد كانوا يجدون متعة في أسباب الراحة والمرح في يافا حيث توفر الطعام والشراب، ونقلت المومسات من عكا، وأوضحوا تماماً عن تطلعهم ليوم عطلة طويل في المدينة حيث لا مكافأة مناسبة لاتعابهم، وفوق ذلك كان هنالك اضطرابات سياسية في كل من قبرص وصور، حيث كانت ميول كونراد أوف مونتفرات ضد ريتشارد تزداد قوة، المهم أن الوقت صار مناسباً للصلح، لذلك أرسل ريتشارد مبعوثيه إلى صلاح الدين، فوافق على مناقشة احتمال إقامة هدنة، وانتدب أخاه العادل ليتحدث باسمه.

واتصفت المفاوضات التي تلت بالتأجيل والمراوغة ودامت لمدة سنة، وقد أديرت بلطافة جمة في جو مناسب لأوبرا هزلية في بعض الأحيان، أكثر مما يدعوه الألمان السياسة الحقيقية، فقد أصبح ريتشارد والعادل صديقين يحبان بعضهما البعض خلال سير مفاوضاتهما الطويلة، حتى إنه في أحد الأوقات ألمح ريتشارد إلى أخي صلاح الدين بوجوب زواجه من أخته الملكة الأرملة جوانا صاحبة صقلية رغم أنه لم يكلف نفسه عناء إعلام السيدة نفسها عن هذا المشروع قبل مناقشة الفكرة، وعندما علمت به إنتابها الفزع، وعلى الفور أخبرت أخاها أنه ليس ثمة شيء يغريها في الزواج من مسلم، ويبدو أن صلاح الدين تناول العرض كنكتة، وأجاب أخوه عندما سئل عما إذا سيفكر في أن يصبح مسيحياً لكي يتزوج جوانا، فأجاب بلطافته المعتادة أنه سيجد صعوبة في أن يصبح مسيحياً جيداً، ومن أجل ألا يظهر شعوراً سيئاً استضاف ريتشارد إلى حفل عشاء في اللد في عظمة وسخار كبيرين، وفي وقت متأخر من ذلك المساء، اشترك الملك المسيحي والأمير المسلم في توكيد التعاطف والاحترام المتبادل الذي بدا غريباً إلى حد بعيد بالنسبة لأي شبح من الصليبيين الأوائل، الذي ربما كان واحد منهم يحوم متململاً ولا يرى في قاعة المأدبة العادل ولكن من وجهة نظر ريتشارد، تشوهت هذه الاتصالات الودية لأن العادل كان يجري مفاوضات سلام منفصلة مع كونراد أوف مونتفرات الذي لم يزعج نفسه

بإخبار الملك الانكليزي بما كان يفعل، بينما كان أخو صلاح الدين مثل دبلوماسي حاذق جداً، التزم السرية في اجتماعاته مع كونراد أيضاً.

وبينما طالت هذه المحادثات المتنوعة أقبلت أمطار الشتاء، وسرح صلاح الدين نصف جيشه، ورفض ريتشارد أن يتقهقر بسبب أحوال الطقس. وفوق ذلك سار إلى القدس في تشرين الثاني ولكنه لم يعد عليه بالفائدة الكثيرة لأنه اعترف بخطاه بعد أن عانى رجاله من البؤس وعدم الراحة في الطقس المثلج والرطب، وسار بامتعاض برجاله عائداً إلى الساحل مرة أخرى، ووجه رجاله لاعادة بناء عسقلان، وأثناء ذلك الوقت، أصبحت المنافسات السياسية بين أحزاب الحكم المتعددة سيئة للغاية في عكا، إلى درجة اتجه معها البيزيون والجنويون فعلاً إلى القتال مع بعضهم البعض، ووقف البيزيون إلى جانب الملك غاي ضد كونراد أوف مونتفرات الذي ناصره الجنويون، وأصبح الوضع ملحاً باطراد، وتعين تهدئة النزاع بين الرجلين خاصة منذ تلقى ريتشارد أنباء من الوطن في ذلك الوقت مفادها أن أخاه جون لاكلاند كان منهمكاً في مفاوضات خيانية مع ملك فرنسا، وعرف أنه لم يعد في إمكانه البقاء أكثر من ذلك في الممالك الصليبية، إذا رغب في الحفاظ على تاجه في انكلترا، وكشف النقاب عن أن التأييد لصالح كونراد اتسع بعدما ماتت زوجة غاي سيبيلا بينما تزوج كونراد أختها الصغرى ايزابيلا وأصبح لديه إدعاء بالمطالبة بالعرش أكثر من غاي، وكان ريتشارد قد ساند في السابق، ولكنه الآن قرر على توكيد مزاعم كونراد بدلاً عن ذلك، ومن أجل أن يعوض عن ذلك لغاي، عرض عليه ملكية قبرص رغم أنه تعين عليه شراءها من فرسان الداوية الذين باعهم إياها سابقاً، وسر الجميع لهذا الحل للمشكلة التي جزأتهم لفترة طويلة من لزمن، وتوبعت قدماً الاستعدادات لتتويج كونراد في جو مريح ممتع، ولكن قدر هذه السعادة العامة لم يدم طويلاً.

ووفق ما ذكره مؤرخ الأحداث ايرنول تأخرت زوجة كونراد ايزابيلا عن العشاء بعد أن بقيت في الحمام فترة طويلة، وقرر كونراد أن يتناول عشاءه مع

صديقه اسقف بيو فايس، لكن عندما وصل كونراد، كان الأسقف قد انتهى من طعامه، ورغم أنه عرض عليه أن يتناول وجبة أعدت لزائره غير المتوقع، ما كان كونراد إلّا أن رفض، ولم يرد أن يكون مزعجاً، فكان سعيداً تماماً في أن يعود إلى بيته مرة أخرى، وفي طريق عودته، وعندما التفت عند زاوية بادره بالكلام رجلان. وفي حين لفت أحدهما انتباهه، كان الآخر قد طعنه، وهكذا حمل إلى قصره ميتاً، وكان المجرمان من الحشيشية الذين اعتدى عليهم كونراد بطريقة ما في الماضي، وقد أمر بقتله شيخ الجبل، سنان، وقد قتل فيما بعد أحد المذنبين في البقعة نفسها واعتقل الآخر الذي اعترف بأنه من جماعة الحشيشية وبذنبه في الجريمة، ولكن بعض الأشخاص رفضوا تصديقه واضعين اللوم بدلاً منه على ريتشارد نفسه، وقد نوقش الموضوع بشكل مسهب من قبل المؤرخين الطين استمر بعضهم في اتهام ريتشارد بالجريمة، ولكن هذا الشيء بعيد عن أن ينطبق عليه تماماً، كما أنه ليس هناك سبب للشك في براءته.

وبوصفها ابنة الملك أمالرك الأول، أرملة كونراد، كانت إيزابيلا الوريثة للملكة في ذلك الوقت، ورغم حقيقة أنها تزوجت مرتين، فقد كانت في الحادية والعشرين ولها كل الأوصاف، وجميلة بشكل فاتن. ولأسباب سياسية واضحة تعين عليها بشكل هام وخطير أن تختار زوجاً آخر بالسرعة الممكنة، وضمن أسبوع وفاة كونراد. فتزوجت هنري أوف ترويس، كونت أوف شمبانيا، وهو رجل صاحب عدة مواهب وسحر عظيم، كما كان ابن أخ لكل من ملك انكلترا وملك فرنسا، ورغم أنه كان زواجاً ذا طبيعة سياسية فقد برهن أنه كان زواجاً سعيداً، فقد وقع هنري بحماسة شديدة في حب زوجته، ووجدت ايزابيلا فيه تغييراً مرحباً به بعد زواجها الأخير، الذي كان في متوسط العمر، ورهيباً إلى حد ما.

وعل الرغم من أن هنري لم يتخذ لنفسه لقب ملك، فإن زواجه من إيزابيلا حل المشكلة التي أوقعت المملكة في الارتباك والحيرة لفترة طويلة من الزمن، وشعر ريتشارد بحريته في العودة إلى شيء واحد وجد فيه المتعة حقاً:

ألا وهو الحرب، ولذا في نهاية شهر أيار قام بالاستيلاء على مدينة الدارون جنوب غزة، في هجوم خفيف فاجأ به الحامية المسلمة، وبعد أسبوعين وفي السابع من حزيران انطلق خارجاً من عسقلان على رأس جيشه ليسير إلى القدس مرة ثانية، وبعد خمسة أيام وصل إلى بيت نوبة، النقطة التي تحول عنها وعاد في الشتاء الماضي وتوقف هناك مرة ثانية، وكان تقدمه أكثر من ذلك فيه الخطر التام، حيث كان لديه علم بحاجته إلى الماء، كما أن المدينة تقيم فيها حامية عسكرية قوية موجود فيها صلاح الدين شخصياً، وحتى لو تقدم ريتشارد إلى المكان واحتله، فإن من المشكوك فيه ما إذا سيقدر الإفرنج في الممالك الصليبية على التشبث بها بعد عودته إلى انكلترا، لذا مكث الجيش حيث كان، وأقنع نفسه بإرسال دوريات لإزعاج جنود مسلمين ربما يلتقون به في البلاد بين بيت نوبة القدس، وفي إحدى تلك الحملات بينما كان حصان ريتشارد يعتلي تلة قرب عمواس بعيداً إلى الجنوب الشرقي عبر أرض رخامية مرقطة بأشجار الزتون والرمان، كانت القدس واقعة على مسافة منه بقبابها وأبراجها المتألقة تحت أشعة الشمس.

وبقي الجيش في بيت نوبة لفترة ثلاثة أسابيع دون الإتيان بأي عمل، وتاق العديد من الرجال للتقدم إلى القدس مهما تكن الأخطار، ولكن ريتشارد لم يكن جندياً سيئاً كيلا يدرك أن القيام بهجوم على المدينة سيعود بالنفع القليل، أكثر من أن يرضي الحماس الخيالي في قلب كل رجل دون أن يخدم هدفاً عسكرياً مفيداً ورفض أن يصدر أوامره للتقدم، ولكن هذا السكون المزعج انتهى في 20 حزيران عندما أتت الأنباء إلى المعسكر عن دنو قافلة ضخمة محملة بالمؤن إلى صلاح الدين قادمة من مصر كانت تشق طريقها ببطء نحو الشمال خلال صحراء صعبة جنوب الخليل حيث تنحدر التلال الصخرية إلى البحر الميت في قفار جرداء من الصخور والتراب ووفق ما أورده بهاء الدين الذي سمع فيما بعد روايات الناجين من القافلة فإنه «عندما نقل ذلك بعض العرب إلى ملك انكلترا لم يصدقه، لكنه اعتلى فرسه وانطلق مع العرب

ومجموعة مرافقة صغيرة، وعندما بلغ القافلة تنكر في زي عربي وطاف حولها. وعندما رأى الهدوء قد ساد في المعسكر، وأن الجميع غطوا في نوم عميق عاد وأمر رجاله أن يمتطوا جيادهم، وروى مصدر آخر أن بعض الخفراء المسلمين الحارسين للمعسكر اعترضوا ريتشارد، ولكن أحد زملائه البدو، أجاب بعد أن أومأ إليه بالسكوت بالعربية دون أن يتفحص حصانه، وسرعان ما ابتلع الظلام الزمرة الصغيرة. وعندما عاد ريتشاد مع جيشه لم تستطع القافلة مع حاميتها الصغيرة من الجنود المصريين أن تباري الصليبيين الذين تفوقوا عليهم في العدد بعد أن استولوا على جميع التجار والجنود مع كل السلع والمؤن، وآلات حربية موجهة إلى صلاح الدين، بالإضافة إلى أكثر من ألف حصان، ومثلها من الجمال التي أصبحت جميعها في أيديهم، وقد أسعدت الكميات الضخمة من الغنائم الرجال، وخففت من خيبة أملهم لدى عودتهم إلى بيت نوبة، وعندما أقلع ريتشارد أخيراً عن فكرة الهجوم على القدس أمر جيشه بالتراجع إلى يافا.

وبعد حملته المخفقة ضد القدس، عاد ريتشارد إلى استئناف المفاوضات للسلام مرة أخرى ، ولكن مستقبل مدينة عسقلان التي دمرها صلاح الدين وأعاد بناءها ريتشارد، برهن أنه عقبة لا يمكن تذليلها في الاتفاق، وبدا صلاح الدين مستعداً للموافقة على عدة أشياء ولكن ليس ضم عسقلان إلى الممالك الصليبية، وتأجلت المناقشات واستعد ريتشارد للإبحار إلى الوطن الأم حالما يتوصل إلى اتفاق مع السلطان وتنقل إلى عكا بكل سهولة، وفي 27 تموز رأى صلاح الدين الذي كان يستشعر الألم لفقد الدارون ولهزائمه الأخيرة في عكا وأرسوف، رأى فرصته للأخذ بالثأر، لذا وبعد أن تحرك بسرعة إلى الساحل من القدس شن هجوماً مفاجئاً على يافا، وأخذت الحامية على حين غرة تماماً رغم قتال الجنود المسيحيين بشجاعتهم المعهودة، ولكن النزاعات الشديدة كانت ضدهم فاستسلموا بعد ثلاثة أيام، وعندما سمع ريتشارد بذلك قام بالرد على ذلك بحملة من السرعة والحذر والجرأة الطموحة التي كانت لديه نموذجية كأفضل ما يكون، وبمساعدة الجنوبيين والبيازة أبحر

على الفور من عكا، في حين سار جيشه نحو الجنوب بالسرعة الممكنة حيث وصل بعد أربعة أيام، ولدى رؤية سفنه حملت الحامية المسيحية أسلحتها مرة ثانية وشنت هجوماً عنيفاً على رجال صلاح الدين الذين قاوموا بشعور من الغضب وكانوا متفوقين في العدد على الإفرنج، وبدأت الأمور تبدو كما لو أنهم ينوون السيادة مرة أخرى ، ولكن في تلك المرحلة، قفزقس من سور المدينة، ونزل إلى البحر وأبحر إلى سفينة ريتشارد التي كانت سهلة التمييز لأنها ملونة بلون أحمر براق، كما كان في مقدمتها قيدوم منحوت على شكل رأس تمساح، ولدى وصوله، اعتلى السابح ظهرها وأخبر الملك أن القتال في المدينة، يجري على نحو سيء بالنسبة للمسيحيين، وكانت تلك المرة الأولى التي سمع فيها ريتشارد عن قتال في المدينة، وقرر في الحال أن يتقدم لمساعدتهم رغم حقيقة أن لديه عصبة من الفرسان ومئات من رجال المشاة، وليضفي صفة الشرف على البحارة أمرهم تجديف سفنهم نحو الشاطئ وسحبها وحالما شعر أن عارضة سفينته قد احتكت فوق الرمال قفز إلى الماء وخاض فيه في مقدمة رجاله إلى البر، وفوجئ المسلمون بذلك، وهاجم ريتشارد بعنف واندفاع مقاتلاً بشخصه في مقدمة قوة الهجوم حتى هزم رجال صلاح الدين هزيمة منكرة فانتشروا خارج المدينة لاذين بالفرار للنجاة بأرواحهم، ولم يتوقف القتال حتى ابتعدوا داخل البلاد.

كانت إعادة الاستيلاء على يافا هي آخر مآثر ريتشارد في الممالك الصليبية تقريباً، ولكن صلاح الدين فرض معركة أخى عليه وأثبتت أنها معركة بارزة وجديرة بالذكر، فبعد أن لاذ رجاله بالفرار في فوضى خارج يافا، سرعان ما علم صلاح الدين صغر قوة ريتشارد التي كانت تحت تصرفه أثناء المعركة، ونظراً إلى أن الجيش الصليبي الرئيسي ما زال لم يعبر قيسارية فقد قرر صلاح الدين شن هجوم على الملك الانكليزي، قبل أن تتمكن تلك الإمدادات من الوصول إليه بالفعل، وفي ليلة الرابع من آب قاد الجيش الاسلامي بهدوء قدر الإمكان إلى مسافة ضاربة عند معسكر المسيحيين خارج أسوار يافا، وهناك

رتبهم للقيام بهجوم في فجر اليوم التالي، ولكن لحسن الحظ أن رجلاً جنوياً كان يجوب خارج المعسكر قبل شروق الشمس تماماً، فسمع أصوات صهيل خيول ورجال يتحركون بالقرب من المكان، وعندما بدأت السماء تضيء من جهة الشرق شاهد وميض الفولاذ، وسمع صليل المعدن فوق المعدن على مدى طول الميدان، وركض الرجل عائداً إلى معسكره ليرفع الانذار، وهكذا عندما ارتفعت الشمس وتحرك صلاح الدين للهجوم وجد الانكليز والفرنسيين والايطاليين في انتظاره.

ولم يكن لدى ريتشارد غير خمسة وأربعين فارساً، وخمسة عشر حصاناً وما يقارب ألفي رجل مشاة بما فيهم بعض الايطاليين وفرقة من النشابين الانكليز بأقواس عقارة. وكان ذلك كل شيء، لكنه رتب المشاة في نصف دائرة محكمة الشكل بحيث وضع بين كل زوج من الرجال نشاباً واحداً، وطلب إليهم أن يغرسوا ترستهم في الأرض أمامهم كسياج فولاذي مرتجل، كما جعلت أوتاد الخيم في الأرض أمام ذلك السياج في ارتباط من أجل خيول صلاح الدين، وأخيراً دق كل رجل قصبة رمحه في الأرض في زاوية يكون فيها رأسه الحاد موجهاً نحو العدو. وبذلك أحيطت جبهة جميع المسيحيين بالفولاذ.

وبدأت المعركة بهجوم فرسان صلاح الدين في موجات كل منها ألف رجل، ولكن الصف المسيحي تماسك بثبات، ومرة بعد مرة هاجموا ومرة بعد مرة ردوا إلى الوراء، ودام القتال طوال الصباح، وعند الظهيرة بدا المسلمون مرهقين، وعندما شنوا هجوماً آخر أيضاً، أمر ريتشارد النشابين الانكليز الذين وضعهم احتياطاً بالتغلغل خلال رجال المشاة المرهقين، وبإطلاق وابل من السهام على العدو، وتحت هذا الوابل من القذائف، توقف المسلمون عن تقدمهم وشبت الأحصنة وعارضت بعناد في فوضى بحوافرها وأطرافها مسقطة معتليها بين الجثث، بينما نمزق الهواء بصراخ الجرحى ، وبعد إصدار أوامره بالتراجع، قام ريتشاد بقيادة رجاله من على حصانه الوحيد المتبقي في هجوم

مفاجئ ضد العدو الواقع في فوضى والذي راقب في إعجاب ودهشة الشجاعة التامة لخصمه، وفي الحقيقة أثارته روح ريتشارد الباسلة عندما قتلت فرس ملك الأنكليز تحته فأمر صلاح الدين أحد ساسة الخيل بقيادة زوج من الخيل خلال المعركة تحت راية الهدنة لإعطائها لريتشارد مع تحياته له، فكان ذلك إيماءة خالدة في طريقها بقدر بسالة ريتشارد. وفيما بعد، وتحت ستار الفوضى في المعركة تدبر بعض رجال صلاح الدين أمرهم للتسلل خلسة حول الجناح المسيحي والوصول إلى المدينة حيث أدارت بعض السفن الجنوية مؤخرتها صوب الشاطئ ولاذت بالفرار بحثاً عن ملاذ لها، ولكن قبل استغلالهم فرصتهم، أسرع ريتشاد مع عصبة من الفرسان لنجدة المدافعين عن المدينة، ومع حلول المساء اكتفى صلاح الدين بما قام به ولم يعد في إمكانه العمل أكثر من ذلك، فأصدر أوامره بالتقهقر إلى القدس بعد أن خلف وراءه قتلاه في ساحة القتال مقتنعاً أن الملك ريك الرهيب صاحب الشعر الذهبي رجلاً لا يقهر

وبعد المعركة بفترة قصيرة مرض ريتشارد في حمى شديدة، فلزم خيمته مقللاً من خططه في العودة إلى الوطن حيث جعل تآمر أخيه مع الفرنسيين وجوده هناك ضرورة عاجلة. وعندما تقدم صلاح الدين بنفس الشروط التي اقترحها قبل المعركة خارج يافا لم يتمكن ريتشارد من تقديم فترة أخرى من المساومة فوقع معاهدة سلام لمدة خمس سنوات يكون فيها له المدن الساحلية حتى يافا جنوباً ولكن ليس عسقلان التي تعين تدميرها مرة أخرى . وأن يسمح للحجاج بالقدوم إلى الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة، وبذلك انتهت الحرب، وبعد شفائه من المرض أبحر ريتشارد من ميناء عكا في 9 تشرين الأول 1192، وتحطمت سفينته قرب أكويليا في أول البحر الأدرياتيكي في أراضي البندقية، وفي محاولة لتجنب انتباه ليوبولد المعادي بعنف تنقل متنكراً خلال النمسا، ولكنه عرف عندما عبر فيينا وأسر هناك، وبقي سجيناً أول الأمر لدى ليوبولد الخامس في النمسا، وفيما بعد لدى

الامبراطور الألماني هنري السادس حتى ربيع 1194 عندما عاد إلى إنكلترا بعد أن دفع فدية كبيرة، ولم يبق طويلاً هناك حيث سافر مباشرة إلى فرنسا للدفاع عن ممتلكاته الإقطاعية، ولفترة خمس سنوات وذلك بمهارته وشجاعته المعتادتين حى آذار سنة 1199 عندما جرح بسهم في مناوشة صغيرة مع تابع متمرد، والتهب الجرح وتغنغر ثم مات ريتشارد في 11 نيسان، ومات صلاح الدين قبله في دمشق في 3 آذار 1193 عن عمر يناهز الرابعة والأربعين، وبعد مغادرة ريتشارد الأرض المقدسة، وبرحيله فقد العالم الإسلامي أعظم نصير له، كما فقد العالم المسيحي أنبل خصم له.

obeikandl.com